الاعلام الاعياد
الميلاد
انتظر الميلاد
ها انذا .. انتظر .. الميلاد .. »

يعود الشاعر الى نقطة الصفر . الى الوقوف في أعلى الجبل منتظرا في حزن الميلاد الذي لم يأت .

ان مراثي القاسم تعبر عن نقطتين :

١ — من جهة اولى ينكسر الشعر بين يديه . فالشاعر الفلسطيني ، يعود الى تاريخ عدوه ويتداخل مع مراثي ارميا حيث تصل النجيعة اليهودية الى أعلى مراحلها . فمراثي ارميا هي قصائد شعبية يهودية كتبت بعد السبي سمتها الغالبة شعور مأساوي عميق . وتطلع الى الرب الذي ترك شعبه يسحق تحت ضربات الامم . فحين يستعيد القاسم مأساة عدوه . فانه يصل الى ذروة المأساة . انها المأساة المستلبة الكاملة التي تعود فتنسكب في مآسي العدو . حيث يجد الانسان العربي نفسه محاصرا من جميع الجهات. مراثي القاسم هي مراثي الحصار .

« عصرنا جماجمنا في التراب ، اندغمنا ، اندثرنا
وعدنا سنابل بعض السنابل
ليأمن سادنك الكهل شر الغوائل
وجعنا كثيرا عرينا كثيرا ومتنا كثيرا
ولكن شكرنا
اردت .. فماذا تريد ؟ »

حالة الحصار لها شكلها الخاص في القسم الاول من القصيدة نرى الشاعر يتكيء مباشرة على التراث الشعري المأخوذ من التوراة حيث نتذكر مزامير داود وصوت سليمان الحكيم . وحيث الصورة الشعرية هي تتابع للفعل الانساني في حركته باتجاه الخالق . هذا التتابع يأخذ عند القاسم شكلا نثريا ، لانه تتابع رتيب . فالشعر ينفلت من الضوابط الداخلية . والصورة الشعرية تتمدد على مساحة شاسعة تفقد معها قدرتها على الايحاء . والواقع ان القاسم يريد ان يعبر عن واقع يتلاشى . لكن الجملة الشعرية حين تتلاشى عنده فان تلاشيها ليس متوتر النبرة . انه تلاش انهياري . لكنه لا يعيش داخل الانهيار . يعيش على حافته . لذلك فانه يضطر الى شحن هذا التلاشي بالصور القديمة التي يستعيدها القاسم من كتاباته السابقة .

« هو العار حتى الضحى
أو هو النوم حتى الجريمة
... تناسل اذن يا كلام الجرائد
تناسل اذن يا ذباب المقاعد »

٢ — من جهة ثانية يعود القاسم الى استعارة القضايا الكبرى « الغضب ، الحزن ، الغربة » هي الموضوعات التي تشكل خلفية القصيدة الطويلة . فالشاعر ، حين يضع نفسه ، في مركز النبوة . فانه يقوم في الواقع بحركتين متناقضتين. من جهة يبتعد عن شعبه ، ليدخل في لعبة الحلم من طرف واحد ومن جهة جهة ثانية فانه يحاول أن يكون في ابتعاده ضمير شعبه وصوته. هذه الحركة في اتجاهين متناقضين تعطي القصيدة ، توترا عالي النبرات ، يسمح للشعر ان يصل في اكتشافاته نحو اعماق مأساة شعبه ، لكن القاسم عوض ان يذهب في اللعبة الى نهايتها فانه يتوقف في منتصف الطريق . رؤيته النبوية لا تستطيع ان تصل الى مرحلة تفكيك الواقع ، سحقه واعادة بنائه . بل تتوقف عند الحد الفاصل بين الحلم النبوي والواقع الظاهري . وتعود الى الدائرة نفسها التي تحاول القصيدة كسرها . فيعود الى « أبواب الامم المتحدة (او غير المتحدة) » ويغرق في معاملة وصفية مع قضيته ناسيا البعد الذي حاولت القصيدة ان ترسمه في بدايتها.فتغرق الرؤية النبوية في سطح الواقع. تقوم بحركات متسارعة تحرك هذا السطح ولا تصل الى اعماقه . فتفقد القصيدة عمقها وتتمدد على مسافات طويلة من الورق في حركة دائرية . والواقع ان القاسم حاول ان يخترق هذه الحركة الدائرية باستعماله صورا ناشفة « صلعة الكون » مثلا . والمراد بهذه الصور حرق المساحات المنخفضة في القصيدة واعادة شحنها بالانفعال ، عبر كسر توازن القاريء المستسلم لحركة القصيدة . لكن هذه الصور بتناثرها عبر القصيدة وبعدم قدرتها على التتابع في خطوط مستقيمة متوالية افقدها قدرتها المفترضة على الايحاء الانفعالي . فجاءت محترقة قبل اشتعالها ، ولم تستطع ان تفجر في القصيدة تداعيات انفعالية تفترضها نقطة انطلاق القصيدة نفسها .

« ... ها انذا ، يا نافخ الارواح
في جثث البذار
ها انذا وحدي على الاسوار